الفصل الرابع

تشويه الحلم

لو أنني سقت الآن تلك القضية : إن تحقيق الرغبة هو المعنى الذى ينطوى عليه كل حلم ، أى أن من المحال أن تكون ثمت أحلام غير التى تحقق رغبة ، لكان من المحقق مقدما أن ألقى أقطع المعارضة. سوف يقول لى القائلون : « أن تكون هناك أحلام ينبغى فهمها بكونها تحقق رغبات، ذلك ليس بالشىء الجديد ، بل كثير من المؤلفين قد لحظوه منذ زمن طويل (أنظر رادشتوك ص ١٣٧ ، ١٣٨ وفولكلت ص ١١٠ ، ١١١ وپوركينيه ص ٤٥٦ وتيسييه ص ٧٠ وحديث م . سيمون فى ص ٤٢ عن أحلام الجوع التى عرفها البارون ترنك وهو سجين ، ثم الفقرة الواردة فى ص ٨٩ عند جريزنجر)[1] . وأما أنه لا وجود لأحلام غير التى تحقق رغبات ، فتعميم جديد من هذه التعميمات التى لا مبرر لها ، وهو لحسن الحظ تعميم يسهل دحضه . فالأحلام التى تطالعنا بمحتوى أليم أشد الألم دون أن تضم أقل أثر من تحقيق الرغبة ليس أكثر منها . ولا شك فى أن الفيلسوف المتشائم إدوارد فون هارتمان كان أبعد المبعدين عن نظرية تحقيق الرغبة هذه ؛ فهو يقول فى الجزء الثانى من كتابه 'فلسفة اللاشعور' (١٨٩٠ ، ٥٢ ، ٣٤٤) : وأما الحلم ، فبه تنتقل إلى النوم منغصات اليقظة ، فلا شىء ينقصه سوى الشىء الوحيد الذى قد يصلح إلى حد بين الرجل المثقف والحياة : أعنى متعة العلم والفن . . . بل إن من الملاحظين من هم أقل منه برما بالحياة وهم مع ذلك يلحون على أن الألم والضر يكثران فى الحلم اللذة : مثال ذلك شولتس (١٨٩٣ ، ٥٧) وفولكت (١٨٧٥ ، ٨٠) وغيرهما . وأكثر من ذلك أن السيدتين سارا ويد وفلورنس هالام قد قدرتا غلبة الألم فى الأحلام تقديرا عدديا استندتا فيه إلى دراسة أحلامهما ؛ فأحصتا فى كل مائة حلم ٥٧,٢ حلما أليما ، وأما الأحلام السارة من غير لبس فلم تعد ٢٨,٦ حلما . ثم هناك إلى جانب هذه الأحلام التى تنقل إلى النوم ما تضمه الحياة من ضروب المشاعر الأليمة ، هناك أحلام الهيلة التى فيها يهزنا — حتى ليذهب الكرى

---

(١) وقديماً قال فيلسوف الأفلاطونية الجديدة أفلوطين : « إذا انبعثت الرغبة ، جاءت المخيلة فصورت لنا ما يشبه موضوع هذه الرغبة . » (عن دوپرل ١٨٨٥ ، ٢٧٦) .

عنا — هذا الشعور الذى يفوق فى هوله كل شعور عداه . ولا تزور أحلام الهيلة هذه أحدا بمثل السهولة التى تزور بها الأطفال[١] ، وهم الذين وجدتَ عندهم أحلام الرغبة فى صورتها السافرة . »

والحق هو أن أحلام الهيلة على التحديد تبدو عائقا يحول دون أى تعميم للقضية التى خرجنا بها من الأمثلة المسوقة فى الفصل السابق : أن الحلم تحقيق رغبة . لا ، بل إنها لتدمغ مثل هذه القضية بالبطلان .

بيد أننا لا نجد مع ذلك كبير صعوبة فى دفع هذه الاعتراضات التى تلوح ذات قوة ملزمة . فكل ما نحتاج إليه هو أن نتذكر أن نظريتنا لا تقوم على النظر فى محتوى الحلم الظاهر ، بل هى تحيل إلى الأفكار التى يكشف عنها التفسير من وراء الحلم ، ومن الواجب أن نفرق بين محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن. فمن الحق أن ثمت أحلاما يكون محتواها الظاهر من النوع الأليم ، ولكن هل حاول أحد أن يفسر هذه الأحلام وأن يكشف عن المحتوى الفكرى المستتر وراءها ؟ إذا كان الجواب نفيا ارتفع عنا كلا الاعتراضين الموجهين إلينا ؛ فقد يتبين بعد تفسير الأحلام المؤلمة وأحلام الهيلة أنها أيضا تحقق رغبات[٢] .

---

(١) أنظر حديث دوباكر عن الفزع الليلى .

(٢) [١٩٠٩ :] إن من الصعب أن نتصور مدى إصرار قراء هذا الكتاب ونقاده على أن يغضوا طرفهم عن هذه التفرقة الجوهرية بين محتوى الحلم الظاهر ومحتواه الكامن . — [١٩١٤ :] هذا ولست أجد فى أدب الموضوع شيئا يقرب من رأيى فى الحلم قرب تلك الفقرة التى تجىء فى مقالة ج . سولى " الحلم من حيث هو كشف " ، والتى لا ينال من قيمتها أننى لم أستشهد بها من قبل : " وهكذا قد يتبين أن الأحلام ، مهما يكن من أمر ليست كلها ترهات ، على ما ذهب إليه بعض الثقات من أمثال تشوسر وشكسبير وميلتون . فالتآليف المختلطة الناجمة عن مخيلتنا الليلية تملك مغزى وتنقل معرفة جديدة . فنقش الحلم كخطاب كتب بالشفرة لا تكاد تنعم النظر إليه إلا فقد طابع الطلسمة الذى لاح له للوهلة الأولى ولبس ثوب الرسالة الجدية المعقولة . أو إذا أردت أن تغير التشبيه قليلا ، فقد نقول إن مثل الحلم كمثل مخطوط قديم مسح ليسطر فى محله كلام لا وزن له ولكننا نستطيع مع ذلك أن نتبين من وراء أحرف هذا الكلام أثراً من إفادة قديمة ثمينة . "

["Dreams as a revelation" — "It would seem, then, after all, that dreams are not the utter nonsense they have been said to be by such authorities as Chaucer, Shakespeare and Milton. The chaotic aggregations of our nightfancy have a significance and communicate new knowledge. Like some letter in cipher, the dreaminscription when scrutinized closely loses its first look of baladerdash and takes on the aspect of a serious intelligible message. Or, to vary the figure slightly, we may say that, like some palimpsests, the dream discloses beneath its worthless surface - characters traces of an old and precious communication."]

إذا اتفق أن واجهتنا مشكلة صعبة الحل ونحن بسبيل بحث علمى ، فقد يكون من النافع فى أحيان كثيرة أن نضيف إلى هذه المشكلة أخرى ، على نحو ما يسهل كسر جوزتين معا عن كسرهما واحدة فواحدة . وعلى ذلك فلن نواجه هذا السؤال وحده : كيف يمكن أن تكون الأحلام المؤلمة وأحلام الهيلة تحقيقات لرغبات ؟ بل نضيف إليه سؤالا ثانيا نستطيع أن نخرج به من مناقشاتنا السابقة فى أمر الحلم : تلك الأحلام التى تُبدى محتوى خاليا من اللذة والألم على السواء ثم يتضح بعد ذلك أنها تحقق رغبات ، لماذا لا تعرب عن معناها هذا إعرابا سافرا؟ إليك هذا الحلم الذى أطلنا فى مناقشته ، حلم حقنة إرما : إنه لم يكن حلما ألما بحال ما ، ثم تبين بتفسيره أنه كان مثالا ساطعا على تحقيق الرغبة . ولكن لماذا أحوج الأمر إلى تفسير على الإطلاق ؟ لماذا لم يعرب الحلم عن مراده إعرابا مباشرا ؟ فالحقيقة أن حلم إرما لا يوحى للوهلة الأولى أنه يصور للحالم تحقق إحدى رغباته : فلا قارئ الحلم قد خرج من قراءته بهذا الشعور ، ولا أنا نفسى كنت أعلمه حتى أخذت فى تفسيره . فإذا سمينا هذا المسلك الذى يتطلب تعليلا ظاهرة تشويه الحلم ، كان سؤالنا الثانى هو : ما منشأ هذا التشويه فى الأحلام ؟

ههنا قد تخطر لنا على الفور عدة من الحلول الممكنة لهذه المشكلة ، كأن نقول : إن النوم يتضمن ضربا من العجز عن الإعراب عن أفكارنا الحلمية إعرابا مباشرا . ولكن ثمت أحلاما يحملنا تحليلها على التماس تعليل آخر لتشويه الأحلام . وأمثل لذلك بحلم آخر من أحلامى . ويجرنى هذا التمثيل من جديد إلى البوح بأمور شتى ، ولكن يعوض عن هذه التضحية الشخصية أن تتضح المشكلة اتضاحا تاما .

تمهيد : علمت فى ربيع عام ١٨٩٧ أن أستاذين جامعيين قد رشحانى لدرجة أستاذ مساعد[١] . وكان هذا الخبر مفاجأة لى وكان سرورى به عظيما ؛ فقد رأيت فيه تقديرا صادرا عن رجلين جليلين ، لا يمكن عزوه إلى علاقات شخصية . ولكننى حذرت نفسى عند سماعه من أن تجرى وراء الأمل : فلقد ضربت الوزارة صفحا عن اقتراحات من هذا القبيل فى خلال السنوات الأخيرة[٢] ، وهناك زملاء كثيرون يكبرونى سنا ويعدلونى — على الأقل — استحقاقا ظلوا مع ذلك سنوات ينتظرون هذا المنصب هباء ، ولم يكن

(١) [ترجمة تقريبية لما يسمى فى جامعات النمسا "Professor extraordinarius" .]

(٢) [كانت أمثال هذه الترقيات تصدر إذ ذاك بقرار من وزير المعارف .]

ثمت أى سبب يجعلنى أتوقع أن تتغير الحال معى . لهذا وطدت النفس على الخيبة ، ولست — فيما أعلم — بالرجل الواسع المطامع ، ثم إنى كنت ألاقى فى مهنتى نجاحا مرضيا من غير حاجة إلى أن يزكينى لقب . وعلى أية حال لم يكن ثمت مجال للسؤال عن العنب أحلو هو أم مر ؛ فقد كان من المقطوع به أنه كان مرتفعا جدا .

وفى ذات مساء زارنى صديق من أولئك الزملاء الذين اتخذت لنفسى من مصيرهم نذيرا ؛ فقد ظل زمانا طويلا مرشحا للدرجة الأستاذية التى تجعل من الطبيب فى مجتمعنا نصف إله فى نظر مرضاه . إلا أنه كان أقل منى استسلاما ، فكان يتردد بين الحين والحين على مكاتب الوزارة ، مذكرا كبار المسئولين ، آملا تحقيق مطلبه . وكان مجيئه إلى بعد زورة من هذه ، فقص على كيف أنه فى هذه المرة قد جذب الكبير المسئول إلى أحد الأركان ثم سأله إذا كان تعويق ترقيته لا يرجع فى حقيقة الأمر إلى اعتبارات دينية[1] . فكان الجواب هو : إنه بالنظر إلى تيار المشاعر العامة فى الوقت الحاضر ، فإن معالى الوزير لا يجد نفسه — مؤقتا — فى موقف يسمح له . . . إلخ . ثم أردف صديقى قائلا : « الآن أعرف على الأقل أين أنا » ، مختما بذلك روايته التى لم تكن تحمل إلى جديدا وإن دعمت تسليمى بالأمر الواقع ؛ فتلك الاعتبارات الدينية تصدق علىّ كذلك .

وفى الصباح الذى أعقب هذه الزيارة وقع لى الحلم الآتى ، وهو حلم استرعى نظرى من أجل الصورة التى اتخذها كذلك ؛ فقد تكون الحلم من فكرتين وصورتين : فكرة فصورة ثم فكرة فصورة . ولا أذكر هنا سوى النصف الأول وحده ، لأن النصف الآخر لا علاقة له بالغرض الذى من أجله أورد هذا الحلم .

١ — صديقى ر . هو عمى — أشعر نحوه بحنان كبير .

٢ — أرى وجهه أمامى وقد أصابه بعض التغيير : كأنه استطال . تبرز فى وضوح شديد لحية صفراء أحاطت به .

ثم يعقب الجزءان الآخران اللذان أحذفهما : فكرة أيضا فصورة .

ولقد وقع تفسير الحلم على هذا النحو :

عندما خطر هذا الحلم ببالى فى خلال الصباح ، ضحكت وحدثت نفسى قائلا : هذا الحلم هراء . ولكن الحلم لم ينفك عنى ، بل ظل يلاحقنى طوال النهار ، إلى أن أنبت

---

(١) [كانت المشاعر المعادية للسامية متأججة فى ذلك الوقت فى ڤيينا ، وفرويد — كما نعلم — يهودى .]

نفسى أخيرا ، فى المساء ، قائلا : « لو أن مريضا من مرضاك لم يجد فى خلال تفسير حلمه خيرا من قوله : إن هذا الحلم هراء ، لأخذت فى تأنيبه ولظننت أن الحلم يخفى قصة كريهة يريد الحالم أن يجنب نفسه مؤونة العلم بها . فخذ نفسك بما تأخذ به غيرك. إن اعتقادك أن الحلم هراء إنما يدل على مقاومة باطنة بإزاء تفسيره . فابدأ ، ولا تدع مانعا يمنعك . » وعلى ذلك شرعت أفسره .

« ر . هو عمى . » ما معنى ذلك ؟ إنى لم يكن لى قط سوى عم واحد، عمى يوسف [١] . وكانت لهذا العم قصة مؤلمة : فقد حدث مرة — منذ أكثر من ثلاثين عاما — أن دفعه الطمع فى الكسب إلى التورط فى صفقة من النوع الذى يعاقب عليه القانون عقابا صارما ، وكان أن عوقب . وكان من عادة والدى الذى شاب رأسه من الحزن فى أيام معدودات أن يردد دائما قوله : إن العم يوسف ليس بالرجل الشرير ، ولكنه أبله — تلك كانت كلماته . فلو كان صديقى ر . هو عمى يوسف ، لكان معنى ذلك أنى أقول : إن ر . أبله . أمر لا يكاد يصدق ، كريه على النفس كل الكراهة ! ولكن هناك الوجه الذى أراه فى الحلم بملامحه المستطيلة ولحيته الصفراء . لقد كان لعمى حقيقة وجه كهذا الوجه ، مستطيل الشكل ، يحيط به إطار من لحية جميلة شقراء . وأما صديقى ر . فكان فى أول أمره أسود الشعر حالكه . ولكن ذوى الشعور السوداء إذ تتقدم بهم الأيام يفقدون بهاء شبابهم. فلحاؤهم الداكنة يدب فيها — شعرة فشعرة — تحول فى اللون لا يسر ، فهى تصير فى بادئ الأمر ضاربة إلى الحمرة ، فضاربة إلى الصفرة ، ثم تحول بعدئذ فقط إلى الرمادى الخالص. وقد كانت لحية صديقى ر . تمر بهذا الطور الأخير — وكذلك كانت بعدُ لحيتى ، كما كنت ألحظه فى غير رضا . فالوجه الذى أراه فى الحلم هو وجه صديقى ر . ووجه عمى فى آن معا : إنه كان أشبه بصور جالتون المركبة — فقد كان جالتون يطبع على اللوحة الواحدة وجوها متعددة إظهارا لما قد يكون بين ذوى القربى من الشبه المشترك . وما من شك إذن فى أننى كنت أعنى أن أصف صديقى ر . بالبله — مثل عمى يوسف .

ولست أعلم حتى الآن ما هو الغرض الذى أتوخاه من هذه المماثلة التى لا أزال أثور

---

(١) من العجيب أن نلحظ كيف ضاق نطاق ذاكرتى — ذاكرتى المستيقظة — هنا ، فلم يعد يتسع لغير أغراض التحليل . فالحقيقة هى أننى أملك خمسة أعمام ، أحببت واحداً منهم وأجللته ، ولكننى ما أن تغلبت على المقاومة التى كانت تصدنى عن تفسير الحلم حتى قلت لنفسى : إنى لم يكن لى قط سوى عم واحد — العم المقصود فى الحلم.

عليها . ثم هى مع ذلك مماثلة لا عمق فيها . فقد كان عمى مجرما ، على حين أن صديقى ر . برئ من كل شائبة . . . اللهم إلا من غرامة أدين بها يوما لأنه صدم صبيا بدراجته . أيكون أنى أفكر فى هذه الفعلة ؟ إن معنى ذلك هو أننى أجرى المماثلة مجرى المزاح . ولكننى أذكر الآن حديثا دار منذ بضعة أيام بين زميل آخر — هو ن . — وبينى ، وأذكر أن مدار الحديث كان هذا الموضوع عينه . فقد قابلت ن . فى الطريق ، وكان أيضا مرشحا لدرجة الأستاذية ، فلما علم أنى نلت مثل هذا الشرف هنأنى عليه . ولكننى قاطعته قائلا : « إنك آخر من يحق لهم المزاح فى هذا الباب ؛ فأنت تعلم من خبرتك نفسك ما هى قيمة مثل هذا الترشيح . » فأجابنى وهو فى الأغلب غير جاد : « من يدرى ؟ فالموقف يختلف معى . ألا تعلم أن امرأة قد اتهمتنى يوما فى ساحة القضاء ؟ لا أظننى بحاجة إلى أن أؤكد لك أن الحق قد رجع إلى نصابه وأن الأمر لم يعد أن يكون محاولة دنيئة للابتزاز ، ولقد تحملت مع ذلك كل مشقة لكى أجنب تلك المبلغة الكاذبة جزاءها . ولكن ربما كان القوم فى الوزارة يتخذون من هذه القصة تعلة للحيلولة دون ترقيتى . وأما أنت فلا شائبة تعلق بك . » وهأنذا إذن أملك المجرم وأملك معه تفسير الحلم ومرماه : فعمى يوسف يصور لى كلا الزميلين اللذين لم يرقيا إلى الأستاذية : فأما أولهما ؛ فلأنه أبله . وأما آخرهما ؛ فلأنه مجرم . وأعلم الآن أيضا ما هو وجه الحاجة إلى هذا التصوير : فلو قد كان لعامل الدين أثر فى إرجاء ترقية صديقى ، لكانت ترقيتى كذلك فى خطر ، فإن استطعت أن أجد لإخفاقهما عللا أخرى ، بقى لى الأمل دون أن يضطرب . وعلى هذا يعمل الحلم : فهو يجعل من الأول أبله ويجعل من الآخر مجرما — ولما كنت ولست بهذا ولا بذاك ، فلا شئ يجمع بيننا ومن حقى أن أهنئ نفسى على الأستاذية وأن أستثنى شخصى فلا أطبق عليه النتيجة المؤسة التى تخلص من رواية صديقى ر . عن حديث الموظف الكبير إليه .

بيد أنى لا أجد بدا من المضى فى تفسير هذا الحلم إلى أبعد من هذا المدى ؛ فما زلت أشعر بأننى لم أنته منه إلى النهاية التى أرتضيها ، وأنا لا أزال أضطرب لهذا الاستخفاف الذى أضع به من قدر زميلين جليلين لكى يخلو لى الطريق إلى الأستاذية . نعم ، إن من المستيقن أن سخطى على هذا الأسلوب قد أدركه الوهن منذ تعلمت كيف أقدر شهادة الحلم حق قدرها : فلا أخالنى إلا منكرا أشد الإنكار كل إشارة قد يفهم منها أنى أعد ر . أبله حقيقة ، أو أننى لا أصدق حقيقة قصة البلاغ الكاذب كما رواها ن . ، ولا أنا

أصدق بالطبع أن إرما قد أصابها مرض خطير لأن أوتو حقنها بحقنة من البروبيل؛ فالحلم هنا ، شأنه هنالك، إنما يعرب عن رغبتي فى أن تكون الأمور كذلك . كل الفارق هو أن العبارة التى تتحقق فيها رغبتى تلوح فى الحلم الثانى أقل سخفا منها فى الحلم الأول ؛ فهى قد صيغت فى هذه المرة باستخدام بعض السند من الواقع استخداما أكثر مهارة، كتجريح ذكى يُخَيِّلُ إليك أن « من وراء الدخان ناراً » : فقد وقع إذ ذاك لصديقى ر. أن أستاذا من كليته قد صوت ضده ، وأما صديقى ن . فقد زودنى هو نفسه بمادة القذف من حيث لا يدرى . ولكننى — مع هذا كله — أعود فأقول : إن الحلم لا يزال يقتضى مزيداً من الإيضاح .

إنى أذكر الآن أن هذا الحلم قد احتوى جزءا آخر أغفل التفسير أمره حتى الساعة : ذلك أننى بعد أن خطر لى أن ر. هو عمى شعرت فى الحلم بحنان كبير نحوه . فإلى من يتجه هذا الشعور ؟ فأما عمى يوسف ، فطبعى أننى لم أشعر نحوه بمثل هذا الشعور فى يوم من الأيام . وأما صديقى ر. ، فقد ظللت سنوات أكن له المودة والتقدير ، ولكننى لو قد ذهبت إليه لأعرب له عن مودتى فى كلمات تقارب الحنان الذى خالجنى فى الحلم لما كان دهشه من غير شك بالقليل . فحنانى فى الحلم نحوه يظهر لى زائفا مبالغا فيه ، مثل حكمى على مقدراته العقلية، وهو الحكم الذى أعربت عنه حين أدمجت شخصيته فى شخصية عمى ، وإن تكن المبالغة قد اتخذت هناك الاتجاه المضاد. ولكن ضوءا جديدا قد أخذ يشرق الآن على : فالحنان الذى أحسسته فى الحلم لا ينتمى إلى المحتوى الكامن، إلى الأفكار المستترة خلف الحلم ، بل هذا الحنان ضد هذا المحتوى وما أريد به سوى أن يخفى عنى تفسير الحلم . والراجح أن ذلك على التحديد كان الداعى إلى وجوده . وأذكر الآن كيف أخذت فى تفسير هذا الحلم على كره منى ، وكيف انتحلت الأعذار لإرجائه زمنا طويلا ، وكيف قلت : هذا الحلم هراء محض . ولقد علمتنى ممارسة العلاج بالتحليل النفسى كيف ينبغى تفسير هذا النوع من النبذ: إنه مجرد من كل قيمة من حيث هو حكم، ولا يعدو أن يعرب عن شعور قائله . فابنتى الصغيرة إذا رغبت عن تفاحة قدمت إليها ، أكدت أن التفاحة مُزة وهى لم تذقها . فإن صنع مرضاى صنيع الصغيرة علمت أن ثمت خاطراً يريدون له الكبت. وهذا عينه يصدق على حلمى : فأنا لم أكن أرغب فى تفسيره ؛ لأن تفسيره ينطوى على شىء أغالبه . وأعلم الآن — بعد أن أكملت التفسير — ما هو هذا

الشيء ، إنه قولى : إن ر . أبله . ولست أستطيع أن أرجع الحنان الذى أحسست به إلى أفكار الحلم الكامنة ، بل الأحرى إرجاعه إلى تلك المغالبة . فإذا كان الحلم قد شوه فى هذا الموضع بالقياس إلى محتواه الكامن — وشوه بحيث ينقلب إلى ضده — فقد كان الحنان الظاهر فى الحلم مطية هذا التشويه ، أو بعبارة أخرى : إن التشويه يتبين فى هذه الحالة تشويها متعمدا وطريقة من طرق الاستخفاء . فأفكار الحلم كانت تتضمن قدحا فى ر . ، ولكى أعمى عن هذا القدح ، ظهر فى الحلم الضد ، ظهر نحوه حنان شديد .

إن من الجائز أن يكون ذلك كشفا شامل الصدق . نعم ، إن من الحق أن هناك أحلاما يتجلى فيها تحقيق الرغبة من غير خفاء — كما اتضح من أمثلة الفصل الثالث — ولكن حيثما خفيت الرغبة أو تقنعت ، وجب أن يكون ثمت باعث يبعث المرء على أن يقف من هذه الرغبة موقف المدافع ، ويكون من أثر ذلك أن تعجز الرغبة عن أن تفصح عن نفسها إلا إفصاحا مشوها . وهذا الذى يحدث فى مجال الحياة النفسية سأحاول أن أجد له نظيرا فى حياة المجتمع : أين نصادف فى مجال الحياة الاجتماعية مثل هذا التشويه للأفعال النفسية ؟ نصادفه حيثما نجد شخصين حظ أحدهما أن يملك القوة وحظ الآخر أن يحسب لهذه القوة حسابها ، حينئذ نرى هذا الشخص الثانى يشوه أفعاله النفسية ، ونستطيع كذلك أن نقول : إنه يستخفى . والأدب الذي أمارسه فى كل يوم هو إلى مدى بعيد استخفاء من هذا القبيل. وإنى حين أفسر للقارئ أحلامى أرانى مضطرا إلى مثل هذا التشويه . ومن ضرورة مثل هذا التشويه يشتكى الشاعر إذ يقول :

« ثم إن خير ما تستطيع علمه ، قد لا تملك قوله للصبيان . »[1]

ويعرف الكاتب السياسى مثل هذا الموقف ، إذا كانت لديه حقائق لا تسر ذوى السلطان . فهو إن أعرب عن رأيه فى غير مواربة قمعت الحكومة كلماته — قمعا رجعيا

---

(١) [بيتان لجوته ، يجريهما على لسان مفيستوفوليس أثناء الحوار بينه وبين فاوست فى المشهد الرابع من الجزء الأول من « فاوست » . والمراد بالصبيان هم التلاميذ الذين يأخذون عنه المعرفة . وقد كان فرويد يحب الاستشهاد بهذين البيتين ؛ فهو يذكرهما فى موضع آخر من « تفسير الأحلام » ، وكان قد استشهد بهما قبل ذلك فى خطاب إلى فليس بتاريخ ٣ من ديسمبر سنة ١٨٩٧ وخطاب بتاريخ ٩ من فبراير سنة ١٨٩٨ (فرويد ١٩٥٠ أ) ، ثم رجع فاستشهد بهما فى أواخر حياته بمناسبة منحه جائزة جوته الأدبية سنة ١٩٣٠ ، مطبقا إياهما فى هذه المرة على جوته نفسه (فرويد ١٩٣٠ هـ) .]

إن كان قد أدلى برأيه مشافهة، وقمعا وقائيا إن كانت كلماته لا تزال فى سبيلها إلى النشر . فعلى الكاتب أن يحسب للرقابة حسابها ، وهو من أجل ذلك يتلطف فى تعبيره ويشوهه . وقد يرى نفسه مضطرا — على حسب شدة الرقيب وحساسيته — إما إلى مجرد الإقلاع عن بعض صور المهاجمة ، أو إلى التحدث تلميحا لا تصريحا ، أو إلى أن يخلع على روايته غير المرضى عنها ثوبا من البراءة ، فيتحدث مثلا عن خلاف بين كبيرين من كبراء الصين ، بينما المَعْنِيُّ كبيران فى بلده . وكلما زادت الرقابة ضغطا ، زاد التقنع استفحالا وربما زادت كذلك الحيل التى يشتم منها القارئ حقائق الأمور[1] .

---

(١) لقد روت الدكتورة هـ . فون هوج — هلموت (١٩١٥) حلما ربما كان أصلح من أى حلم آخر فى تبرير المصطلحات التى اخترتها . فالتشويه فى هذا الحلم يستخدم طريقة لا تختلف عن الطريقة التى كانت تعمد إليها رقابة البريد فى خلال الحرب للتخلص من الفقرات التى تثير اعتراضها : كانت الرقابة تلجأ إلى ترجيم مثل هذه الفقرات ترجيما تاما لكى تجعل من قراءتها شيئا مستحيلا، بينما عمدت رقابة الحلم إلى إحلال دمدمة غير مفهومة فى مكانها .

ولكى نفهم هذا الحلم أذكر أن الحالمة كانت سيدة محترمة ، على درجة عالية من الثقافة ، بلغت الخمسين من عمرها . وهى أرملة توفى زوجها — وكان ضابطا كبيرا — منذ اثنى عشر عاما ، ولها ولدان راشدان كان أحدهما فى جبهة القتال حين وقع الحلم .

وإليك الآن حلم " خدمات الحب " [اللفظ الألمانى " Liebesdienste "يعنى أولا الخدمات المبذولة من غير مقابل، أى بدافع من الحب ، ولكنه يتطاع أيضاً لتأويل آخر يسهل إدراكه] : « تذهب الحالمة إلى المستشفى رقم ١ ، وتخبر الحارس الواقف بالباب أنها يجب أن تقابل الطبيب الأول . . . (وهنا تذكر اسما لا عهد لها به) ؛ لأنها تريد التطوع للخدمة فى المستشفى . بيد أنها تنطق كلمة " الخدمة " بطريقة تجعل ضابط الصف يدرك على الفور أنها تعنى " خدمة حب " ، فيتردد بعض التردد ، ولكنه يدعها تمر ؛ لما يراه من تقدمها فى السن . غير أن السيدة بدل أن تذهب إلى الطبيب الأول ، تدخل حجرة كبيرة ، شبه مظلمة ، كان بها عدد كبير من الضباط والأطباء العسكريين جلسوا إلى مائدة طويلة أو وقفوا حولها . وتتجه السيدة بمقترحها إلى طبيب أركان حرب فيدرك مرادها ولما تفه إلا بكلمات قليلة . وكان نص كلامها فى الحلم ما يلى : " إننى أعلم أن اقتراحنا هذا يبدو لكم على جانب كبير من الغرابة ، ولكننا جادات فيه غاية الجد . ولا يسأل الجندى فى الميدان أيريد الموت أم لا يريد." وهنا يسود صمت أليم خلال بضع دقائق . ثم بعد ذلك يطوقها ضابط أركان الحرب بذراعه ويقول : " يا سيدتى الكريمة ، تصورى ماذا يكون الموقف ، لو أن الأمر انتهى حقيقة إلى . . . " (دمدمة) فتفلت منه وهى تحدث نفسها قائلة : " إنه لا يختلف عن غيره " ، ثم تجيبه : " يا إلهى ، إننى سيدة متقدمة فى السن ، وأظن أننى لن أنتهى إلى ذلك أبدا . وهناك على أية حال شرط واحد تجب ملاحظته : مراعاة السن ؛ فلا ينبغى لسيدة عجوز وقى حدث . . . (دمدمة) ، إن ذلك يكون أمرا مروعا . » — ويجيب الطبيب : " إننى أقدر ذلك تمام التقدير " . وعندئذ ينطلق بعض الضباط فى الضحك بصوت عال ، وكان من بينهم ضابط كان قد طلب يدها وهى فى شبابها . وتعرب السيدة عن رغبتها فى أن ترى الطبيب الأول الذى تعرفه معرفة شخصية لكى تنهى معه هذه المسألة جميعها . ولشد ما كانت دهشتها حين رأت أنها لم تكن تعرف اسمه . بيد أن طبيب أركان الحرب يريها فى أدب واحترام بالغين سلما من الحديد ، حلزونيا ، شديد الضيق ، يسلم مباشرة إلى الطابق

هذا التطابق الذى يمس دقائق التفاصيل بين ظواهر الرقابة والتشويه يخول لنا أن نفترض أن لكليهما شروطا متماثلة . وفى مقدورنا إذن أن نقول : إن الذى يعين شكل الحلم عند كل فرد قوتان (ونستطيع أن نسميهما تيارين أو نظامين) ، إحداهما هى الرغبة التى يعرب عنها الحلم ، والأخرى هى التى تقوم بالرقابة على هذه الرغبة وبذلك تؤدى بالضرورة إلى تشويه التعبير عنها . ولا يبقى إلا أن نسأل : فيم تقوم سلطة هذا النظام الثانى ، تلك السلطة التى تمكنه من أن يفرض رقابته ؟ إذا لم ننس أن أفكار الحلم الكامنة هى أفكار لم نكن نشعر بها قبل أن نقوم بالتحليل ، على حين أننا نتذكر الحلم الناشئ عنها تذكرا شعوريا ، لم نكن بعيدين عن أن نقدر أن المزية التى يحظى بها هذا النظام الثانى هى مزية الإذن بدخول الشعور . فلا شىء يدخل الشعور من النظام الأول إلا مر بهذا النظام الثانى ، كما أن هذا النظام الثانى لا يترك شيئا يدخل الشعور بدون أن يمارس حقوقه ودون أن يدخل على الفكرة الصائرة إلى الشعور كل ما يراه مناسبا من التغييرات . ونحن نتوسم من وراء ذلك فكرة محدودة تمام التحديد عن «ماهية» الشعور : فالصيرورة إلى الشعور تصبح فى نظرنا فعلا نفسيا خاصا ، له تميزه واستقلاله عن عملية تكوين الأفكار أو التصورات ، كما أن الشعور يتبدى لنا فى صورة عضو من أعضاء الحس يتناول بإدراكه مادة تنشأ فى جهات أخرى . ومن الممكن أن نبين أن علم الأمراض النفسية لا يملك الاستغناء عن هذه الفروض الأساسية بحال من الأحوال . بيد أننا لا نجد بدا من أن نرجئ النظر فى هذه الفروض إلى موضع آخر . [أنظر الفصل السابع ، وبخاصة القسم و .]

فإذا أخذنا بفكرة النظامين النفسيين وعلاقتهما بالشعور ، وجدنا فى مجال الحياة السياسية مثالا يصور أحسن التصوير هذا الحنان العجيب الذى شعرت به فى الحلم نحو صديق ر . مع ما أظهره التفسير من حط قدره : إنى أتخيل الحياة السياسية فى بلد يغار حاكمه على سلطته أشد الغيرة وينازعه إياها رأى عام يقظ : قد يثور الشعب على رجل من رجال الدولة بغيض إليه ويطالب بإقالته ، ولكن الحاكم المستبد يريد أن يظهر ازدراءه

الثانى . وبينما تصعد تسمع ضابطا يقول : " إنه قرار ما أجسمه ، ويستوى أن تكون صاحبته صغيرة السن أو متقدمته ، لها كل إجلالنا ! "

« وتمضى الحالمة مصعدة فى درجات لا تنتهى ، يملؤها الشعور بأنها إنما تؤدى واجبا .

وتكرر هذا الحلم مرتين فى خلال بضعة أسابيع دون أن يمسه — على حسب ما لاحظته السيدة — سوى تغيير مجرد من كل أهمية أو مغزى . »

لإرادة الشعب ، فإذا هو يخلع على رجل الدولة هذا شرفا كبيرا ما كان ليمنحه إياه لولا ذلك . وعلى هذا النحو يجود النظام الثانى الذى يتحكم عندى فى الطريق إلى الشعور بطفحة من الحنان على صديقى ر . ، لا لشىء سوى أن النوازع المنتمية إلى النظام الأول كانت تبغى لو رمت ر . بالبله ؛ لمنفعة خاصة كانت تجذبها فى ذلك الحين[١] .

لعلنا نلمح الآن أن فى مقدور تفسير الأحلام أن يلقى على تركيب جهازنا النفسى ضوءا ظللنا ننتظره عبثا من الفلسفة . بيد أننا لن نسلك هذه السبيل ، بل نعود وقد وضحنا أمر تشويه الحلم — إلى المشكلة التى ابتدأنا منها . لقد كان سؤالنا هو : كيف يمكن أن ترد الأحلام الأليمة إلى تحقيقات للرغبات؟ وها نحن أولاء نرى أن ذلك أمر ممكن إذا طرأ التشويه على الحلم ، وإذا لم يكن المحتوى الأليم سوى قناع لأمر تتجة الرغبة إليه. ويمكننا أيضا أن نقول بالإشارة إلى ما افترضناه من وجود نظامين نفسيين : إن الأحلام الأليمة تتضمن حقيقة شيئا مؤلما بالنسبة إلى النظام الثانى ولكنها تحقق فى الوقت عينه رغبة للنظام الأول ؛ فهى أحلام رغبة من حيث أن كل حلم يصدر عن النظام الأول ، وأما علاقة النظام الثانى بالحلم فعلاقة دفاعية لا إنشائية[٢] . ولو أننا قصرنا أنفسنا على النظر فيما يضيفه النظام الثانى إلى الأحلام ، ما أمكننا قط أن نتوصل إلى فهمها : إن جميع الألغاز التى لاحظ المؤلفون أمرها فى صدد الحلم تظل عندئذ قائمة .

أن يكون لكل حلم حقيقةً معنى مستتر لا يخرج عن أن يكون تحقيق رغبة أمر يجب تبيانه بالتحليل فى كل حالة من جديد . وعلى ذلك أنتخب قليلا من الأحلام ذوات المحتوى الأليم وأحاول تحليلها . وبعض هذه الأحلام قد أتاه أشخاص هستريون ، وهى

---

(١) إن أمثال هذه الأحلام المنافقة غير نادرة الوقوع سواء عندى أم عند غيرى . ولقد اتفق بينما كنت أشتغل بمشكلة علمية معينة أن أزعجنى حلم عاودنى فى خلال عدة ليالى متقاربة . وكان مضمونه هو الصلح مع صديق كنت قد تحولت عنه منذ زمن بعيد . وأخيرا ، بعد المرة الرابعة أو الخامسة ، أفلحت فى فهم هذا الحلم : إنه كان تحريضا على أن أدع البقية الباقية من الاعتبار الذى كنت أكنه لهذا الشخص ، وعلى أن أحرر نفسى منه تحريرا تاما ، وهو ما تقنع بقناع الضد نفاقا . ولقد ذكرت فى موضع آخر (١٩١٠ ل) حلما حلمه البعض فيه حل الحنان الظاهر محل النزعات العدوانية ورغبات الموت المتضمنة فى الأفكار الكامنة . وسوف أذكر فيما بعد نوعاً آخر من أحلام النفاق (أنظر الفصل السادس " عمل الحلم " [ص ٤٧١ وما بعدها]) [الصديق المشار إليه فى هذا الهامش هو من غير شك ڤيلهلم فليس ، والهامش كله قد أضيف فى سنة ١٩١١ .]

(٢) [١٩٣٠ :] سوف نصادف أيضا — فيما بعد — أمثلة أخرى تعرب — على العكس — عن رغبة لهذا النظام الثانى . [أنظر « أحلام العقاب » فى الفهرست التحليلى .]

إذن تستدعى تمهيدا طويلا وتستدعى فى بعض المواضع غوصا فى العمليات النفسية التى تتميز بها الهستريا . ولكننى لا أجد سبيلا إلى إزالة هذه الصعوبات التى تثقل عرض حجتى .

عندما أعالج أحد العصابيين بالتحليل النفسى ، فالقاعدة — كما سبق أن ذكرت — هى أن تغدو أحلامه موضع حديثنا . ولست أجد بدا فى خلال هذه المناقشة من أن أطلعه على كل الإيضاحات السيكولوجية التى أعانتنى نفسى على فهم أعراضه . وهنا أسمع منه نقدا لا هوادة فيه، لا يقل صرامة — على التأكيد — عن هذا الذى أتوقعه من زملائى. ولم يفت مريضا من مرضاى أن ينقد قولى: إن الأحلام جميعها تحقق رغبات. وها هى ذى بضعة أمثلة من تلك الأحلام التى ساقها أصحابها تدليلا على بطلان نظريتى .

قالت مريضة فطنة من مرضاى: « إنك تقول دائما : إن الحلم يحقق رغبة . إليك إذن حلما كان على عكس ذلك تماما؛ فقد كان مؤداه أننى لا أحقق إحدى رغباتى . فكيف توفق بين ذلك وبين نظريتك ؟ وها هو ذلك الحلم :

« أريد أن أقيم مأدبة عشاء ، ولكنى لا أجد لدى سوى قليل من سمك السالمون المدخن. أفكر فى الخروج لكى أشترى شيئاً ما ، ولكنى أتذكر أننا فى عصر يوم الأحد وأن جميع المحال مغلقة . فأحاول الاتصال ببعض الموردين ولكن التليفون كان متعطلا . وعلى ذلك لا أجد بداً من النزول عن رغبتى فى إقامة مأدبة العشاء . »

وكان جوابى بالطبع هو : أن التحليل وحده هو الذى يستطيع أن يقرر ما معنى هذا الحلم ، وإن كنت أسلم بأنه يلوح للوهلة الأولى معقولا متناسق الأجزاء، وأنه يرينا عكس تحقيق الرغبة . « ولكن أية مناسبة دعت إلى هذا الحلم؟ فأنت تعلمين أن الحافز إلى الحلم يكمن دائما بين أحداث اليوم السابق . »

التحليل : إن زوج المريضة — وهو رجل أمين قدير يشتغل بتوريد اللحوم بالجملة — قد أخبرها فى اليوم السابق أنه أخذ يفرط فى السمنة، وأنه — لذلك — قد اعتزم أن يبدأ علاجا يخفف وزنه: أن يستيقظ فى ساعة مبكرة من الصباح وأن يقوم ببعض التمرينات البدنية، مع الأخذ بنظام دقيق فى التغذية ، ثم هو — قبل كل شىء — لن يقبل أى دعوة إلى العشاء . — وأضافت المريضة كيف تعرّف زوجها فى المطعم الذى اعتاد أن يتناول فيه وجبة الغذاء برسام ألح فى طلب رسمه إلحاحا شديدا ؛ لأنه — أعنى الرسام — لم ير فى

حياته رأسا كانت لملاحه مثل هذه القوة المعبرة . إلا أن زوجها أجابه بطريقته القاطعة : أنه شاكر جزيل الشكر ولكنه واثق من أن طرفا من مؤخر فتاة جميلة سوف يكون أحب إلى الرسام من رأسه هو بأكمله[1] . إنها الآن مولعة بزوجها أشد الولع ، وتتحين المناسبات لمعاكسته . وهى أيضا قد طلبت منه أخيرا أن يكف عن تقديم الكاڤيار إليها . — ما معنى ذلك ؟

الحقيقة هى أنها تتمنى منذ زمن طويل لو قد استطاعت أن تأكل ساندويتش من الكاڤيار كل صباح ، ولكنها تغالب نفسها خشية التكاليف . إنها تستطيع بالطبع أن تنال على الفور كل الكاڤيار الذى تشاء لو قد سألت زوجها ، ولكنها طلبت منه — على العكس — ألا يهدى إليها شيئا منه ، لكى يتاح لها المضى فى معاكسته .

(إن هذا التعليل يبدو لى مفتعلا . وأمثال هذه البيانات غير المقنعة تستر فى العادة دوافع لا يصارح بها صاحبها نفسه . إنها تذكرنا بالمرضى الذين كان ينومهم برنهايم تنويما مغناطيسيا والذين كانوا ينفذون بعد استيقاظهم ما أمروا فى خلال تنويمهم بأدائه ، فإن سئلوا عن دوافعهم ، لم يقولوا : لا ندرى ، بل انتحلوا لفعلهم سببا يظهر للعيان بعده عن الصواب . وأغلب الظن أن ذلك هو الشأن فيما يتصل بكاڤيار مريضتى . وألحظ أنها قد سبقت إلى أن تخلق لنفسها رغبة غير محققة فى حياة اليقظة . والحلم أيضا يصور هذا النزول عن الرغبة . فما وجه حاجتها تلك إلى رغبة لا تتحقق ؟)

إن الأفكار التى ظفرنا بها حتى الآن لا تكفى فى تفسير الحلم ؛ فألح فى طلب المزيد . وإذا هى — بعد وقفة قصيرة تتفق والوقت الذى استغرقه ظهورها على بعض المقاومة — تقص على أنها فى اليوم السابق قد زارت صديقة لها تعترف مريضتى بغيرتها منها ، لأن زوجها لا يكف عن امتداحها . ومن حسن الحظ أن هذه السيدة نحيفة عجفاء ، بينما يعجب زوجها بالأشكال المليئة . والآن : عم تحدثت هذه الصديقة العجفاء ؟ تحدثت بالطبع عن رغبتها فى أن تمتلأ بعض الامتلاء . وهى أيضا قد سألت مريضتى : « ترى متى تدعيننا إلى وجبة أخرى ؟ فالطعام الذى نأكله عندك ما أطيبه دائما ! »

والآن اتضح معنى الحلم ، وأستطيع أن أقول لمريضتى : « لكأنك — حين سألتك

---

(١) أنظر قولنا : " قعد المصور " ثم بيتى جوته :

وإذا لم يكن السيد النبيل مؤخره
فكيف يستطيع السيد النبيل قعودا ؟

صديقتك سؤالها — قد حدثت نفسك قائلة : حقا ! تريدين أن أدعوك إلى منزلى حتى تأكلى وتسمنى وتظفرى من إعجاب زوجى بالمزيد ! إنى لأفضل ألا أدعو أحدا للعشاء بعد الآن . والحلم يقول لك : إنك لا تستطيعين أن تدعى أحدا إلى العشاء ، فيحقق بذلك رغبتك فى ألا تفعلى ما من شأنه أن يستدير جسم صديقتك . وإن عزم زوجك على أن يرفض دعوات العشاء تجنبا للسمنة قد ذكرك أن المرء يسمن فى الولائم . » ولا تنقصنا بعد ذلك إلا مصادفة تؤيد حلنا : ذلك أن مجىء السالمون المدخن فى الحلم لم يكن قد تبين أمره بعد. فلما سألت المريضة : « كيف اتفق لك التفكير فى السالمون ؟ » أجابت : « إن السالمون المدخن هو طبق صديقتى المفضل . » ويتفق أننى أعرف هذه السيدة ، وأستطيع أن أقول : إنها تحل لنفسها من السالمون المدخن مقدار ما تستحله مريضتى من الكافيار .

إن هذا الحلم لا يزال يقبل تفسيرا آخر ، ألطف وأخفى ، تقتضيه ملابسة ثانوية . ثم هو تفسير لا يتناقض وسابقه ، بل إنهما ليتداخلان ضاربين لنا مثالا طيبا على هذا التكثر فى المعنى الذى تنطوى عليه الأحلام عادة شأنها فى ذلك شأن سائر الظواهر النفسية المرضية جميعا . فنحن نذكر أن مريضتى حين وقع لها الحلم الذى تخلت فيه عن إحدى رغباتها كانت تعمل على أن تخلق لنفسها رغبة معوقة فى الحياة الواقعة كذلك (رغبة ساندويتش الكافيار) . وكانت صديقتها قد أعربت من جانبها عن رغبة لها — هى الرغبة فى أن تزيد امتلاء . وما كنا لندهش لو أن مريضتى قد حلمت بأن رغبة صديقتها قد جانبها التحقيق ؛ فتلك على التحديد هى رغبة مريضتى ، إنها الرغبة فى ألا تتحقق رغبة صديقتها فى أن تزيد وزنا . ولكنها — بدل ذلك — تحلم بلا تحقق إحدى رغباتها هى . وإن الحلم ليكتسب تفسيرا جديدا إذا لم تكن هى المعنية فى الحلم بل صديقتها ، إذا كانت قد وضعت نفسها مكان صديقتها أو عينت ذاتها[1] بها — كما يمكننا أن نقول .

(١) [هكذا نترجم فعلا ذا أصل لاتينى ، ثم انتقل من اللاتينية إلى جميع اللغات الأوروبية ، دون أن يكون له مرادف تام فى العربية . ومعنى هذا الفعل هو (أ) أن تقول عن شيئين إنهما ذات الشىء ، أن تقول عن أحدهما إنه الآخر أى أن تعرفه به ، أو (ب) أن تجعلهما كذلك . ثم استخدم فرويد هذا الفعل ليسمى به العملية النفسية أو العلاقة التى يتحدث عنها الآن بين الذات وغيرها . فمن الواضح من المثال الذى ذكره أن قول المريضة فيما يتصل بصديقتها : " لا أريد أن تتحقق رغبتها " قد اتخذ فى الحلم صورة : " لا أريد أن تتحقق رغبتى " ومنه تظهر المساواة أو المطابقة التامة بين ياء المتكلم وضمير الغائبة . فكأن المريضة قد دلت على نفسها بصديقتها ، عرفتها بها ، وهذا هو المعنى الأول للكلمة . — وننبه باختصار إلى أن الأمر لا يتعلق بالطبع بمعرفة

وأعتقد أن ذلك هو ما قد وقع حقيقة ، وإن كونها قد خلقت لنفسها رغبة محبطة فى الحياة الواقعة لعلامة على هذا التعيين لذاتها بصديقتها . ولكن ما معنى هذا التعيين الهسترى؟ إن ذلك ما يحتاج إلى شرح مطول . فالتعيين لحظة بالغة الأهمية فى ميكانيكية الأعراض الهسترية . فهو الذى يمكن المرضى من أن يعربوا بأعراضهم لا عن خبراتهم أنفسهم فقط ، بل عن خبرات عدد كبير من الناس فوق ذلك ، حتى لكأنهم يألمون

تدركها المريضة وتملكها ، أى معرفة تنطق بها وتجعلها موضع قول ، بل الأصدق هو أن نقول : إن هذه المعرفة هى التى تملك المريضة وتؤسسها وتضلها عن حقيقتها ، إنها معرفة معاشه قبل كل شىء . ويجرنا هذا إلى المعنى الثانى : فقد " وضعت المريضة نفسها مكان صديقتها " أى أنها قد صارت هى المعوقة الرغبة ، أى هى الصديقة . وترجمتنا لا تنقل هذا المعنى الثانى نقلا مباشرا ، ولكن يبررها أنه إذا كان الأمر كذلك ، فكأن المريضة قد تعينت بصديقتها بالمعنى الأرسطوطاليسى الذى نقول به : إن المادة تتعين بالصورة .

وإذا أردت أن تمثل للعلاقة التى يراد التعبير عنها بمثال مألوف قلنا : حين نرى رجلا انتزعته شخصية نابليون عن نفسه انتزاعا جزئيا (وحينئذ يكون الأمر غرورا ، قل أو كثر) أو انتزاعا كليا (وحينئذ يكون جنونا) — فإننا نعرب عن ذلك بأن نقول حينا : إنه « فاكر نفسه نابليون » ، ونقول حينا آخر : إنه « عامل نفسه نابليون » . وهذه الحرية فى اختيار إحدى العبارتين دليل على أننا نشعر بأن العلاقة المراد الإعراب عنها ، بين المجنون ونابليون ، هى علاقة ذات وجهين : وجه معرفى (اعتقادى) هو الذى يبرز حين نقول : فاكر نفسه (وهى معرفة هى فى الوقت نفسه ضلال) ، ثم وجه معاش هو الذى يبرز حين نقول : عامل نفسه (وهو فعل هو فى الوقت نفسه خيال) . ونحن نرى كيف ينطبق الفعل الأوروبى بمعنييه على هذه العلاقة بوجهيها جميعا أحسن الانطباق . أما بالعربية فلم نجد خيرا من قولنا إن المجنون قد " عين ذاته " بنابليون .

وأما الترجمتان الموضوعتان من قبل : تقمص وتوحد ، فلم نجد بدا من تركهما . فقد غضضنا الطرف عن الطابع المجازى لأولاهما وعن الخطأ اللغوى الذى فى ثانيتهما — فما تجدى المناقشة إلا بعد التسليم بمقاصد المخاطب — ومع هذا بقى سببان يحولان دون قبولهما : الأول ، هو أن كلا هاتين الترجمتين تغفل الوجه المعرفى للفكرة المراد ترجمتها إغفالا تاما . ولقد كنا نغض الطرف عن ذلك نظراً لأن هذا المعنى وإن كان متضمنا من غير أدنى شك فى اللفظ الأوروبى إلا أن فرويد لا يبرزه فى العادة صراحة حين يتحدث عن العلاقة التى يسميها بهذا اللفظ ، ولكن هناك السبب الثانى ، وهو الأهم : ذلك أن كلتا هاتين الترجمتين تعرضاننا تعريضاً شديداً لفهم التعيين الذاتى على أنه محاكاة ؛ فقولنا : " تقمص فلان فلانا أو توحد به " يجعلنا نفهم عادة أنه يحاكيه محاكاة شديدة ، على حين أن فرويد نفسه يفرق فيما يلى تفرقة قاطعة صريحة بين التعيين الذاتى بالمعنى التحليلى وبين العملية السيكولوجية المعروفة باسم التقليد . والحق هو أن التقليد عملية تتم بين طرفين مكونين من قبل هما المقلد والمقلد ، فى حين أن التعيين الذاتى هو العملية أو العلاقة التى تتكون الذات بها وفيها . أو بعبارة سبينوزية : إن فكرة التعيين الذاتى فكرة تضعنا فى مستوى الطبيعة الطابعة أو المكونة لا الطبيعة المطبوعة أو المكونة ، ويجب أن نفهم فى هذا المستوى . وإن ذلك عينه لهو الذى يجعل فهمها هذا عسيرا غاية العسر على غير المحللين ، فليس مثل المحلل ليدرك فى وضوح العلم قول الشاعر : Je est un autre .

هذا ولقد أردنا أن نجنب القارئ كل خلط ممكن فامتنعنا فى طول هذا الكتاب وعرضه عن أن نستخدم مادة " عين " إلا فيما يعادل Identifizieren فلم نقل "عين ذاته أو نفسه " إلا لمعادلة sich identifizieren ، كما لم نقل " التعيين " إلا فى معنى Identifizierung .]

بوساطته نيابةً عن جمهور بأكمله من الناس ، ويملأون بمفردهم أدوار الرواية جميعا . وسوف أسمع من يقول : إن هذا إلا التقليد الهستري المعروف ، قدرة الهستريين على أن يقلدوا أى عرض قد يستدعى انتباههم عند غيرهم من الناس ، إنه المشاركة الوجدانية وقد اشتدت — إن جاز التعبير — إلى حد التكرار . بيد أن هذا القول إنما يدل على الطريق الذى تسلكه العملية النفسية فى حالة التقليد الهستري. والطريق شيء ، والفعل النفسى الذى يسلك هذا الطريق شيء آخر؛ فهذا الفعل يقوم فى عملية استنباطية لا شعورية ، كما يتضح بمثال: لنفرض أن طبيبا يعالج مريضة تعانى نوعا من التشنج فى حجرة واحدة من حجرات المستشفى مع غيرها من المرضى : إن الطبيب لن يدهش إذا رأى ذات صباح أن هذا النوع من النوبات الهسترية قد وجد مقلدين ، ولن يزيد الطبيب على أن يقول : « لقد رآها سائر المرضى ، فحنوا حنوها ؛ هذه حالة من حالات العدوى النفسية » — نعم ، ولكن هذه العدوى النفسية قد وقعت على نحو يقرب من الآتى: إن المرضى يعلمون فى العادة ، كل عن الآخر ، أكثر مما يعلمه الطبيب عن كل منهم على حدة ، وهم — بعد أن تفرغ زيارة الطبيب — يتحولون إلى الاهتمام بعضهم ببعض؛ فافرض أن مريضة قد انتابتها اليوم إحدى أزماتها: إن البقية لن تلبث أن تعلم أن العلة خطاب تلقته من أهلها أو هائج غرام هاج شجوها أو شيء يشبه ذلك، ثم إذا كل منهم تثور مشاركته ، وتتكون فى نفسه تلك النتيجة — وإن لم تبلغ شعوره — : « إذا كان من الممكن أن يعانى المرء مثل هذه النوبة من جراء مثل هذه العلة، فأنا أيضا قد أعانيها ؛ لأن مثل هذه العلة قد تعرض لى » ، ولو كانت هذه نتيجة تستطيع أن تبلغ الشعور ، لأمكن أن تسلم إلى الهيلة من معاناة مثل هذه النوبة ، ولكنها قد تكونت فى منطقة نفسية مغايرة ؛ ولهذا كانت تنتهى إلى تحقيق العرض المخوف. وهكذا لا يكون تعيين الذات بغيرها تقليدا وحسب ، بل تمثلا[1] قائما على ادعاء علة مماثلة ؛ إنه يعرب عن فكرة « ما من فارق » ويتعلق بعنصر مشترك يظل باقيا فى اللاشعور .

ويستخدم التعيين فى الهستريا — أكثر ما يستخدم — تعبيرا عن شركة جنسية . فالمرأة الهستيرية أسرع ما تكون — وإن لم يكن ذلك على نحو مانع — إلى أن تعين ذاتها فى أعراضها بأولئك الأشخاص الذين كانت لها بهم علاقة جنسية ، أو بمن كانت لهم بأولئك

(١) [بالمعنى المعروف فى علوم الأحياء .]

هذه العلاقة نفسها . وتدخل اللغة فى حسابها تصورا مماثلا للأمور ، فيقال عن العاشقين : إنهما « شىء واحد » . ويكفى من أجل وقوع التعيين ، فى المخيلة المستريّة كما فى الحلم ، أن يفكر المرء فى علاقات جنسية ، دون أن تكون هذه العلاقات حقيقة بالضرورة . فريضتنا إنما تتبع قواعد التفكير المستري حين تعرب عن غيرتها (وهى بعدُ غيرة تسلم هى نفسها بخلوها من كل مبرر) بأن تضع نفسها موضع صديقتها وتعين ذاتها بها بخلق عرض من الأعراض (هو الرغبة الممنوعة) . ولنا أن نعرب عن العملية فى كلم على النحو الآتى : إن المريضة قد وضعت نفسها فى محل صديقتها لأن صديقتها قد شغلت منزلتها هى فى نفس زوجها ، ولأنها — أعنى مريضتى — كانت تود لو تحل محل صديقتها فى إعجاب زوجها [1] .

وأرادت مريضة أخرى (هى أمهر حالماتى) أن تنقض نظريتى فى الأحلام ، فأمكن أن يحل حلمها حلا أقل تعقيدا وإن ظل متفقا مع ذات القاعدة : أنّ لا تحقق إحدى الرغبات معناه تحقق أخرى . ذلك أننى شرحت لها يوما أن الحلم يحقق رغبة ، فأتتنى فى اليوم التالى بحلم رأت فيه أنها تسافر وزوجة أبيها لتقضيا فصل الصيف معا فى الريف . وكنت أعلم أنها قد ثارت ثورة شعواء على فكرة المصيف قريبا من زوجة أبيها ، وأنها — قبل ذلك بأيام — قد أفلحت لحسن حظها فى الإفلات من هذه الصحبة المخوفة فاستأجرت منزلا فى الريف يبعدها عن حيث كانت امرأة أبيها كل البعد . وها هو ذا الحلم قد أتى فإذا هو يقلب هذا الوضع رأسا على عقب . ألا ينقض ذلك نظريتى فى تحقق الرغبة بوساطة الحلم أقطع نقض ؟ يقينا ، ولا يحتاج المرء إلا إلى أن يستخرج النتيجة التى تخلص من هذا الحلم لكى يحصل على تفسيره : إن الذى يخلص من هذا الحلم هو أننى كنت على خطأ . وهكذا فقد كانت رغبتها هى أن أكون على خطأ والحلم يريها تحقق هذه

---

(١) إنى آسف إذ أدرج فى سياق كلامى هذه الفقرات الخاصة بسيكوباثولوجية المستريا ، وهى — بعد — فقرات لا يمكن أن تأتينا بنور كبير لتقطع عرضها ولانتزاعها من محيطها . بيد أنه لو أمكن أن تدلنا هذه الفقرات على العلاقات الباطنة بين الأحلام والأعصبة ، لحقق ذلك الغرض الذى أوردتها من أجله . [هذه هى المرة الأولى التى يتحدث فيها فرويد فى كتاباته المنشورة عن فكرة التعيين وإن يكن قد أشار إليها من قبل (١٨٩٧) فى رسائله إلى فليس . وتزيد أهمية هذا النص إذا علمنا أن فرويد لا يعود إلى مثل هذا النظر المفصل إلا بعد ذلك بما يزيد على العشرين عاما (فرويد ١٩٢١ ج ، الفصل السابع) وأن الأمر يتعلق بفكرة لا نغالى إذا قلنا إنها حجر الزاوية فى كل النظرية التحليلية النفسية — ونرجو أن يعذرنا ذلك على الها مش الطويل الذى وضعناه فى تبرير ترجمتنا لهذا المصطلح . هذا ويطلق لفظ التعيين أيضاً على عملية أخرى تكون جزءا من عمل الحلم ، يتحدث عنها فرويد فى القسم ج من الفصل السادس ، ص ٣٣٠ . وهذه العملية الأخيرة تختلف فى دلالتها من تلك التى تحدث عنها فرويد الآن اختلافاً مطلقاً — وإن اشتركت معها فى الاسم .]

الرغبة . بيد أن رغبتها فى أن أكون قد جانبت الصواب — وهى الرغبة التى ارتبط تحقيقها بقصة إجازة الصيف — كانت فى الحقيقة تتصل بشىء آخر أكثر خطرا . ذلك أننى كنت قد استنتجت فى ذلك الوقت من المادة التى جلبها تحليلها أن أمرا كان له أثره الحاسم فى نشأة مرضها لا بد قد وقع لها فى فترة معينة من حياتها . ولكنها نفت ذلك ؛ لأنها لم تكن تذكر شيئا منه . وما لبث أن تبين أنى كنت على صواب . ورغبتها إذن فى أن أكون على خطأ كانت تجيب رغبة أخرى لها وجاهتها ، هى الرغبة ألا تكون قد وقعت قط تلك الأمور التى كانت المريضة قد أخذت تحذرها إذ ذاك للمرة الأولى .

وحدث مرة أننى جازفت ففسرت من غير تحليل ما بل بتخمين محض قصة صغيرة جرت لصديق لى كان زميلى فى المدرسة طيلة ثمانى سنوات . فقد استمع يوما إلى محاضرة ألقيتها فى دائرة صغيرة وكان موضوع المحاضرة هو هذه البدعة القائلة : إن الحلم تحقيق رغبة . فلما عاد إلى منزله حلم بأنه قد خسر جميع قضاياه — وكان محاميا — ثم جاءنى يشتكينى فى هذا الصدد . فكان أنى تهربت قائلا : « إن المرء لا يستطيع أن يكسب جميع قضاياه . » بيد أننى قد حدثت نفسى قائلا : « إذا كنت قد ظللت ثمانى سنوات وأنا أول الفصل على حين كان هو يتأرجح فى مكان ما بمنتصفه ، فهل من عجب فى أن تساوره تلك الرغبة المتخلفة من أيام الصبا فى أن أبوء يوما بالخذلان ؟ » .

وها هو ذا حلم آخر أقدم طابعا ساقته أيضا إحدى مريضاتى اعتراضا على نظرية أحلام الرغبة . كانت المريضة فتاة فى مقتبل العمر ، قالت : « تذكر أن أختى لم يبق لها الآن إلا ولد واحد ، هو كارل ؛ فقد توفى أخوه الأكبر أوتو حين كنت لا أزال أسكن بمنزلها ، وكان أوتو هو الولد المفضل عندى ؛ فأنا فى الحقيقة التى نشأته . نعم ، إن الولد الأصغر عزيز علىّ كذلك ، لكنه إعزاز لا يقارب ما كنت أكنه لأخيه المتوفى . وفى الليلة الماضية حلمت أنى أرى كارل يرقد ميتا فى نعشه الصغير وقد تشابكت يداه وأحاطت به الشموع ، وبالاختصار كان المشهد شبيها كل الشبه به حين مات صغيرى أوتو تلك الميتة التى تعلم إلى أى حد صدمتنى . والآن خبرنى ، ما معنى ذلك ؟ إنك تعرفنى . هل أكون من القسوة بحيث أتمنى لأختى أن تفقد طفلها الوحيد ؟ أو أن ذلك يعنى أنى كنت أفضل لو كان الميت كارل وليس أوتو الذى آثرته ذلك الإيثار الكبير ؟ » .

وهنا أكدت لها أن التفسير الأخير تفسير ينبغى استبعاده كل الاستبعاد . ولم يعجزنى

– بعد قليل من التروى – أن آتيها بالتفسير الصحيح . وقد وسعنى ذلك لأننى كنت أعلم من قبل تاريخ الحالمة برمته .

تيتمت الفتاة وهى فى مطلع حياتها فنشأت فى منزل أخت لها تكبرها فى السن كثيرا . ولقيت الفتاة بين من كانت تلقى من أصدقاء المنزل وزواره رجلا ترك فى قلبها أثرا لا يمحى . وجاء وقت لاح فيه أن هذه العلاقة التى ما كادت تبلغ مبلغ التصريح سوف تنتهى إلى الزواج ، ولكن أختها قضت على هذه الخاتمة ؛ لأسباب لم تستنر قط كل الاستنارة . ولما حلت القطيعة انقطع عن المنزل الرجل الذى خصته مريضتى بحبها ، واستقلت هى بعيشها بعد أن مات أوتو الصغير الذى كانت تحولت إليه فى إبان ذلك بحبها . بيد أنها لم تفلح فى التحرر من تلك العيلة التى أوقعها فيها تعلقها بصديق شقيقتها . كان كبرياؤها ينهاها عن القياه ، لكنها كانت عاجزة عن أن تخلع حبها على غيره من الطلاب الذين تواردوا عليها . وكان من المحقق إذا أعلن رجلها الحبيب – وهو من المشتغلين بالأدب – عن محاضرة يلقيها ، أن تجدها بين سامعيه . وكانت إلى ذلك لا تترك فرصة تتيح لها أن تراه فى مكان عام دون أن تُرى . وأذكر أنها قد أبلغتنى فى اليوم السابق أن الأستاذ ذاهب إلى حفل موسيقى وأنها أيضا ذاهبة إليه حتى تنعم بطلعته مرة أخرى . كان ذلك فى اليوم السابق على الحلم ، وكان يوم الحفل هو اليوم الذى قصت فيه الحلم علىّ . وهكذا تيسر أن أستنتج التفسير الصائب : سألتها هل هناك حدث تخصه بالذكر بعد موت أوتو ، فأجابت على الفور : « طبعا ، لقد جاء الأستاذ إذ ذاك بعد طول غيبة ، فرأيته مرة أخرى بجوار أوتو الراقد فى نعشه الصغير » ، وكان ذلك عينه هو ما حسبت ، ففسرت لها الحلم على هذا النحو : « لو أن الولد الآخر مات الآن ، لتكرر ذلك مرة أخرى . سوف تقضين اليوم فى منزل أختك ، ويجئ الأستاذ على التأكيد للتعزية وترينه من جديد فى ذات الملابسات التى رأيته فيها من قبل . ولا يعنى الحلم سوى هذه الرغبة فى العودة إلى رؤيته ، تلك الرغبة التى تكافحينها فى دخيلة نفسك . وأعلم أنك تحملين فى حقيبتك تذكرة لحفل اليوم ؛ فحلمك حلم صبر نافد : إنه يستبق لقاء اليوم بساعات قلائل . »

فالمريضة لكى تخفى رغبتها قد اختارت موقفا جرت العادة على أن تكبت فيه أمثال هذه الرغبات ، موقفا يطغى فيه الحزن على المرء فلا يجد متسعا للتفكير فى الحب . ومع هذا فإن من الممكن كل الإمكان أن تكون الفتاة قد عجزت – حتى وهى واقفة حقيقة بجانب

نعش الولد الأكبر الذى آثرته بحبها – عن أن تكبت مشاعرها الرقيقة تجاه ذلك الزائر الذى طالما اشتاقت إليه .

وهناك حلم آخر يماثل الذى سبق، بيد أنه لقى تفسيرا مختلفا ، وهو حلم أتته مريضة عرفت فى صباها بسرعة النكتة ومرح المزاج وكانت لا تزال تبدى هذه الصفات فى المستدعيات التى كانت تدور بخاطرها فى أثناء العلاج على الأقل . فقد خيل إلى هذه السيدة ، ضمن ما خيل إليها فى سياق حلم طويل ، أنها ترى ابنتها الوحيدة البالغة من العمر خمسة عشر ربيعا وقد رقدت أمامها فى صندوق رقدة الموت . وكانت السيدة تود لو قد أقامت من ظاهر حلمها حجة على نظريتى ، ولكنها كانت تشعر هى نفسها بأن ملابسة الصندوق تنطوى لا محالة على ما قد يؤدى إلى فهم مختلف للحلم[١] . وأخذنا فى التحليل فخطر لها أن الحديث قد دار فى سهرة الأمس حول كلمة "box" الإنجليزية وحول الكلمات الألمانية التى تترجم معانيها المختلفة فى الإنجليزية ، مثل Schachtel [صندوق] و Loge [مقصورة] و Kasten [خزانة] و Ohrfeige [لكمة] . وكان فى سائر فقرات ذلك الحلم ما يسمح لنا بأن نضيف إلى ذلك أن السيدة قد حدست العلاقة بين الكلمة الإنجليزية "box" وبين الألمانية" Büchse "[٢] وأنها قد تذكرت عندئذ – ولم تبرحها الذكرى – أن كلمة" Büchse "تستخدم فى لغة السوقة للدلالة على الأعضاء التناسلية عند المرأة . وبهذا أمكننا أن نسلم – مع قليل من التسامح تجاه معرفتها بالتشريح الموضعى – بأن وجود الطفلة فى الصندوق كان يعنى جنينا فى رحم أمه . فلما بلغنا من الاستنارة هذا المبلغ ، لم تعد المريضة تنكر أن الصورة كانت تعرب حقيقة عن رغبة من رغباتها . فهى – شأن الكثيرات من الزوجات الصغيرات السن – لم تستشعر أقل سعادة حين رأت نفسها حاملا ، بل هى قد صرحت أكثر من مرة بما كانت تتمناه من موت الطفل وهو جنين . وأكثر من ذلك أنها قد أخذت مرة – فى نوبة من الغضب أعقبت مشادة حامية مع زوجها – أخذت تقرع بطنها بقبضتى يديها لكى تصرع الجنين الذى تحمله . وهكذا كانت صورة الحلم تحقق بالفعل رغبة ، ولكنها رغبة انطوت منذ خمسة عشر عاما . وما من عجب إذا كان المرء لا يرجع يعرف رغبة له تحققت بعد هذا الإرجاء الطويل؛ فكم تبدلت فى خلال ذلك بالأمور أمور .

---

(١) كما كان الشأن مع السالمون المدخن فى حلم الرغبة الممنوعة [ص ١٧٢] .

(٢) [وتعنى آنية أو وعاء . وتنطق " بوكسه " بضمة مشمومة الكسر .]

وسوف أعود، تحت باب الأحلام النمطية [القسم د من الفصل الخامس] إلى هذه الطائفة من الأحلام التى ينتمى إليها الحلمان الأخيران والتى يمثل محتواها موت قريب عزيز. وسوف أتمكن من أن أبين ببعض الأمثلة الجديدة كيف يجب تفسير هذه الأحلام بكونها تحقق رغبات على الرغم من محتواها غير المرغوب فيه. وأما الحلم الآتى الذى رواه صاحبه أيضا لكى يردنى عن التعجل فى تعميم نظريتى، فلا أدين به لمريض بل لرجل نابه من رجال القانون تربطنى به معرفة وثيقة. قال محدثى: «حلمت أنى أسير أمام منزل وقد اتكأت سيدة على ذراعى. وهناك أرى عربة مغلقة ورجلا يخرج منها ويتجه نحوى ثم يطلعنى على ما يثبت أنه من ضباط الشرطة ويطلب منى أن أتبعه، فأرجو منه أن يمهلنى برهة أرتب فيها حوائجى. أفتعتقد أننى ربما رغبت فى أن يقبض على؟» — فلا أجد إلا أن أجيبه: «كلا، يقينا. ولكن أتراك تذكر لأى تهمة قبض عليك؟» — «نعم، أظنها قتل رضيع.» — «قتل رضيع؟ ولكنك تعلم أن هذه جريمة لاترتكبها إلا أم نحو وليدها؟» — «هذا صحيح.»[1] — «وما هى الملابسات التى صاحبت وقوع هذا الحلم؟ ما الذى حدث فى الليلة السابقة عليه؟» — «ذلك ما أوثر الامتناع عن الحديث عنه، فهى مسألة حساسة.» — «ولكننى أحتاج إليها. وإلا صرفنا النظر عن فكرة تفسير هذا الحلم.» — «اسمع إذن: إننى لم أقض الليلة الماضية بمنزلى بل بمنزل سيدة تعنى الشىء الكثير بالنسبة إلى. فلما استيقظنا فى الصباح عدنا لما فعلناه من قبل. وبعدئذ نمت مرة ثانية وحلمت الحلم الذى رويته لك.» — «أهى سيدة متزوجة؟» — «نعم.» — «وأنت لا تريد أن تعقب منها ولدا؟» — «كلا، كلا، فذلك ما قد يفضح سرنا.» — «ولست — إذن — تمارس الجماع السوى؟» — «إنى أحتاط فانسحب قبل الإنزال.» — «هل أفترض أنك قد أعملت هذه الحيلة أكثر من مرة تلك الليلة وأنك لم تكن واثقا من النجاح بعد تكرارك الأمر فى الصباح؟» — «ممكن جدا.» — «إذن حلمك يحقق رغبة؛ فهو يؤكد لك أنك لم تعقب ولدا أو أنك قتلته، والأمران سيان، وفى وسعى أن أبين لك من غير عناء ما هى الحلقات التى ربطت بينهما. أتذكر أننا كنا نتحدث منذ أيام قليلة عن متاعب الزواج وعن التناقض الذى فى إباحتنا الجماع مع الاحتياط لمنع النسل فى حين أننا نعد

---

(١) يحدث فى كثير من الأحيان أن يروى الحلم منقوصاً فى أول الأمر ولا تنبعث ذكرى الأجزاء المحذوفة إلا فى أثناء التحليل. وحينئذ يتضح دائماً أن هذه الأجزاء التى تضاف من بعد هى التى تزودنا بمفتاح تفسير الحلم. أنظر مناقشة نسيان الأحلام فيما بعد [القسم أ من الفصل السابع.]

كل تدخل يحدث بعد التقاء البويضة والحيوان المنوى وبعد تكون الجنين جريمة ؟ لقد تذكرنا بهذه المناسبة المناقشة التى دارت فى القرون الوسطى عن اللحظة التى تنفذ فيها الروح إلى الجنين لأن تطبيق فكرة القتل لا يكون إلا ابتداء من هذه اللحظة . ثم إنك تعرف من غير شك قصيدة لينارو المروعة التى يسوى فيها بين قتل الرضع ومنع النسل. » — « العجيب هو أننى قد فكرت فى لينارو هذا الصباح ، كأنما جاء ذلك اتفاقا . » — « ذلك صدى آخر لحلمك . وأريك الآن فى حلمك تحقيقا آخر ثانويا لرغبة أخرى : ذلك أنك تسير إلى منزلك والسيدة بذراعك، أى أنك تأخذها إلى دارك[1] بدل أن تقضى الليل بمنزلها كما هو الأمر فى الواقع. أما كون تحقيق الرغبة قد اتخذ فى الحلم هذه الصورة غير السارة، فأمر قد يكون له أكثر من سبب. فلعلك علمت من مقالتى فى علية أعصبة الهيلة [فرويد ١٨٩٥ ب] أننى أدخل الجماع المنقطع فى عداد العوامل التى تنشأ عنها الهيلة العصابية . وإنه ليتفق وذلك أن يتركك تكرارك مثل هذا الجماع فى حالة من القلق صارت بعدئذ أحد العناصر المقومة لحلمك . ثم إنك تستغل هذه الحالة المزاجية لكى تخفى بها تحقيق رغبتك . وعلى أية حال فإن إشارتك إلى قتل الرضيع لم ينجل أمرها بعد . كيف اتفق أن خطرت لك تلك الجريمة التى تنفرد بها النساء ؟» — « أعترف لك بأننى قد تورطت مرة — منذ بضع سنوات — فى قصة شبيهة بهذه . فقد كنت مسئولا عن إقدام إحدى الفتيات على الإجهاض لكى تدرأ ما نجم عن صلتها بى . ولم يكن لى أقل دخل فى تنفيذ ما اعتزمته، ولكننى ظللت بالطبع زمنا طويلا فى خشية من أن ينفضح الأمر . » — « أفهم ذلك . وإن هذه الذكرى لتزودنا بسبب ثان يرينا لم كان من الحتم أن يركبك القلق عند توجسك الإخفاق فى حيلتك . »

وسمعنى طبيب شاب أروى هذا الحلم فى قاعة محاضراتى ، ولا بد أن هذا الحلم قد أصاب من نفسه الشىء الكثير ؛ لأنه سارع إلى محاكاته بحلم من عنده طبق فيه ذات الأسلوب الفكرى على موضوع مختلف : فهو قد أدى فى اليوم السابق إقرار الدخل ، وكان إقراره صريحا لا مواربة فيه ؛ لأنه لم يكن يملك سوى الشىء القليل ليقرّ به. ثم بعد ذلك رأى فى الحلم أن صديقا من معارفه يجىء إليه بعد اجتماع لجنة الضرائب ويبلغه أن جميع الإقرارات قد مرت من غير استيقاف إلا إقراره؛ فقد أثار تشكك الجميع ، وأنه

(١) [heimfuhren ، يعنى " أخذها إلى داره " ويعنى أيضاً " تزوجها " .]

قد يدان من جراء ذلك بغرامة كبيرة . إن هذا الحلم ليس إلا قناعا شفافا لبسته الرغبة فى أن يكون طبيبا ذا دخل كبير . وإنه ليذكر بقصة الفتاة التى نصحها الناصحون بأن ترفض رجلا طاب يدها ؛ لأنه رجل حاد المزاج ولأنه لا محالة سوف يتفاهم معها باللكمات بعد الزواج ، فكان أن أجابت الفتاة : « لو ضربنى ! » فرغبة الفتاة فى الاقتران شديدة حتى أنها لتقبل ضمن البيعة منغصات هذا الزواج ، بل تتمناها .

لو أنى جمعت هذا النوع من الأحلام الشائعة أكبر الشيوع [١] والتى تبدو تناقض نظريتى مناقضة مباشرة من حيث تحتوى على رغبة حيل دونها والتحقق أو من حيث تحتوى على أمر تصدف عنه النفس صدوفا جليا تحت عنوان «الأحلام المضادة للرغبات» ، لرأيت أنها ترتد جميعا إلى مبدأين لم أذكر أحدهما بعد على كبير خطره فى حياة الناس كما فى أحلامهم . فأول قوة دافعة إلى هذه الأحلام هى الرغبة فى أن أكون على خطأ . وتظهر هذه الأحلام فى خلال العلاج دون أن تتخلف ، إذا مر المريض بفترة من المقاومة تجاهى ؛ وأستطيع أن أستثير عند المريض حلما من هذا القبيل وأنا واثق أكبر الثقة من ذلك إذا شرحت له للمرة الأولى نظريتى فى أن الحلم تحقيق رغبة [٢] . بل إنى أتوقع أن تجرى الأمور على هذا المنوال مع الكثيرين من قرائى ، فيمنعوا أنفسهم فى الحلم إحدى رغباتها طواعية ، لا لغرض سوى التدليل على خطائى . ويصور لنا ذلك مرة أخرى الحلم الآتى — وهو آخر ما أذكر من هذا النوع من الأحلام التى تقع تحت العلاج . والحالمة هنا فتاة فى مقتبل العمر استطاعت أن تستمر فى علاجها بعد أن كافحت إرادة أهلها وإرادة من شاورتهم من أولى الأمر كفاحا شاقا ، رأت : أن أهلها يمنعونها عن المجىء إلى ، فتذكرنى بما وعدتها إياه من المداومة على علاجها من غير مقابل إذا لزم ذلك ، ولكننى أجيبها : إننى لا أعرف اعتبارا لأحد فى مسائل النقود .

الواقع أن تبيين الرغبة فى هذا المثال ليس أمرا سهلا . بيد أننا نجد فى جميع أمثال هذه الحالات مشكلة أخرى يعين حلها على حل المشكلة الأولى . فمن أين جاءت المريضة بهذه الكلمات التى وضعتها على لسانى فى الحلم ؟ إن مثل هذا القول لم يصدر عنى قط

---

(١) [أضيفت هذه الفقرة والتى تليها فى عام ١٩٠٩ .]

(٢) لقد سمعت تكرارا فى خلال السنوات القليلة الأخيرة كثيراً من هذه « الأحلام المضادة للرغبات » وكان أصحابها من المستمعين إلى محاضراتى ، وكانت أحلامهم هذه هى استجابتهم تجاه أول التقائهم « بنظرية الرغبة » فى الأحلام .

بالطبع ، ولكن أخاً لها — هو صاحب التأثير الأعظم فيها — كان من اللطف بحيث خصنى بهذه الملاحظة. والحلم —إذن— يهدف إلى إثبات صواب أخيها. وهى لا تصر على أن يكون الحق لأخيها هذا فى الحلم وحده ، بل ذلك كان شاغل حياتها ودافعها إلى المرض .

وها هو ذا حلم آخر [١] يبدو للوهلة الأولى أنه يواجه نظرية تحقيق الرغبة بصعوبات خاصة ، وهو حلم أتاه طبيب وفسره (ورواه أوجست شتاركه ، ١٩١١):

« أرى على العقلة الأخيرة من السباية اليسرى أول آثار [Primäraffekt] السفلس »

إن المرء قد يحجم عن تفسير هذا الحلم بعد الروية ؛ فهو حلم واضح متناسق ، فيما خلا محتواه غير المرغوب فيه. ولكن لو أن أحدا تكلف مع ذلك عناء تحليله لعلم ، أن "Primäraffekt" تعادل " Primo Affectio "(الحب الأول) ، ولتبين أن القرحة المنفرة كانت — كما يقول شتاركة — « تمثل تحقيق رغبات ذات شحنة وجدانية شديدة . »

وأما الدافع الثانى إلى الأحلام المضادة للرغبات [٢]. فواضح حتى ليسهل خطر إغفاله ، كما كان الشأن معى زمنا طويلا. ذلك أن التكوين الجنسى يضم عند كثير من الناس مقوما ماسوشيا ينشأ عن انقلاب المقوم العدوانى السادى إلى ضده . ويسمى أمثال هؤلاء الناس ماسوشيين « نفسيين » إذا لم يلتمسوا اللذة فى إيقاع الألم الجسمى بأنفسهم ، بل فى المذلة وعذاب النفس . وندرك على الفور أن هؤلاء الأشخاص قد تقع لهم أحلام برغبات مضادة أو أحلام مؤلمة ، وهى مع ذلك لا تخرج عن أن تكون تحقيقات رغبات ؛ لأنها تشبع نوازعهم الماسوشية . وإليك حلما من هذا القبيل ، وهو لشاب كان يعذب فى صباه أخاه الأكبر شر العذاب وكان له بهذا الأخ شغف جنسى ، فلما تغير طبعه تغيرا أساسيا جاءه ذلك الحلم على ثلاثة أجزاء : ١ – أخوه الأكبر يغيظه . ٢ – شخصان بالغان يلاطف أحدهما الآخر لغاية جنسية مثلية . ٣ – باع أخوه المؤسسة التجارية التى كان يطمع فى إدارتها يوما. ويستيقظ الحالم من الحلم الأخير نهبا لأشد الأحاسيس ألما . والحلم مع ذلك حلم رغبة ماسوشية تمكن ترجمته على هذا النحو : إنه لجزاء عدل أن يعقد أخى هذا البيع على كره منى عقابا لى على كل ما اضطر إلى احتماله من العذاب على يدى .

أرجو أن تكون الأمثلة المتقدمة كافية — حتى يظهر اعتراض جديد — فى تسويغ

---

(١) [أضيف ذكر هذا الحلم مع التعقيب عليه فى عام ١٩١٤ .]

(٢) [وهو الدافع الذى قال فرويد فى الصفحة السابقة إنه لم يذكره بعد — أضيفت هذه الفقرة فى عام ١٩٠٩ .]

القول بوجوب تحليل الأحلام الأليمة المحتوى كما لو كانت هى أيضا تحقق رغبات[١] . ومن الواجب كذلك ألا نعد الأمر صدفة إذا كان تفسير هذه الأحلام يوقفنا فى كل مرة على موضوعات ينفر الناس من التحدث عنها أو التفكير فيها . فلا شك فى أن الشعور الأليم الذى تثيره هذه الأحلام لا يختلف من النفور الذى يحدونا — بنجاح فى غالب الأحايين — إلى الإمساك عن معالجة هذه الموضوعات أو ذكرها والذى تتحتم على كل منا مغالبته إذا لم نجد مع ذلك بدا من مواجهتها . بيد أن هذا الشعور غير اللاذ الذى يتردد تبعاً لذلك فى الأحلام لا يمنع من أن تكون ثمت رغبة من الرغبات ؛ فلكل امرئ رغبات يؤثر كتمها عن غيره من الناس ، بل رغبات لا يريد أن يصارح نفسه بها . ونحن ، من ناحية أخرى ، محقون حين نربط بين الطابع غير اللاذ لهذه الأحلام جميعاً وبين واقعة تشويه الحلم ، وحين نخلص إلى أن تلك الأحلام إنما نالها ذلك التشويه وأن تحقيق الرغبة إنما تقنع فيها إلى حد الخفاء لأن ثمت نفورا من موضوع الحلم أو من الرغبة المتفرعة عنه ، ونية مبيتة على كبتهما . وهكذا يتضح أن تشويه الحلم هو فى الحقيقة فعل من أفعال الرقابة . ونحن إذن ندخل فى حسابنا كل ما قد أظهره إلى الضوء تحليل الأحلام غير اللاذة حين نعدل الصيغة التى أردنا أن نعرب بها عن ماهية الحلم هذا التعديل : الحلم تحقيق (مقنع) لرغبة (مقموعة أو مكبوتة)[٢] .

---

(١) أشير هنا إلى أننى لم أفرغ بعد من هذا الموضوع فروغاً تاما ، وسوف أعود إليه فيما بعد [أنظر " أعلام العقاب " فى الفهرست التحليلى .]

(٢) [هامش أضيف عام ١٩١٤ :] لقد توصل كاتب معاصر كبير — وهو على ما علمت يرفض أن أن يسمع كلمة واحدة عن التحليل النفسى أو عن تفسير الأحلام — إلى صيغة فى ماهية الحلم لا تكاد تختلف من تلك التى وضعتها ، فهو يقول : إن الحلم " انبعاث من غير تصريح لرغبات وأمان مقموعة ، تحت ملامح وأسماء مزيفة . " (شپيتلر ، ١٩١٤) .

[١٩١١ :] وأستبق الأمور هنا بذكر التوسيع والتعديل اللذين أدخلهما أوتو رانك على الصيغة الأساسية المذكورة فى النص : " إن الحلم يصور دائما ، فى صورة مقنعة رمزية ، تحقق رغبات حاضرة ، هى أيضاً فى القاعدة رغبات جنسية ، وذلك بالاستناد إلى مواد مستندة من الحياة الجنسية الطفلية المكبوتة و بمعاونتها . " (رانك ، ١٩١٠) .

[١٩٢٥ :] هذا ولم يحدث قط أنى ذكرت فى أى موضع من المواضع أن صيغة رانك تعرب عن رأيى . وإن الصيغة الأقصر ، على ما وردت عليه فى النص ، لتبدو لى وافية بالغرض . ولكن مجرد ذكر التعديل الذى أدخله رانك كان كافياً لأن تنهال على التحليل النفسى اتهامات لا يحصى عددها ، مؤداها أن التحليل النفسى يؤكد أن جميع الأحلام ذات محتوى جنسى . وهذه الجملة إذا فهمت بالمعنى الذى يراد فهمه منها فإنما تدل على مدى التجرد من الضمير الذى يظهره النقاد فى قيامهم بعملهم ، وعلى مدى مسارعة الخصوم إلى التعامى عن كل

تبقى الآن أحلام الهيلة من حيث هى نوع أسفل من أنواع الأحلام الألمية المحتوى ، وهى التى سوف يلاقى تصورها على أنها أحلام رغبة أقل الترحيب ممن لا يعلمون . غير أنى لا أستطيع مع ذلك أن أعرض لأحلام الهيلة فى هذا الموضع إلا عرضا موجزا غاية الإيجاز . وذلك لأنها لا تواجهنا بوجه جديد لمشكلة الحلم ، وإنما المشكلة هنا هى أن نفهم الهيلة العصابية بوجه عام . فالهيلة التى نستشعرها فى الحلم لا يعللها محتوى ذلك الحلم إلا فى الظاهر . فإذا أخضعنا محتوى الحلم للتحليل رأينا أن الهيلة فى ذلك الحلم لا تعلل بمحتواه [الظاهر] خيرا مما تعلل الهيلة فى مخافة من المخاوف المرضية بالفكرة التى تقترن بها هذه المخافة — مثلا . فمن الحق — مثلا — أن المرء قد يقع من الشباك وأن على المرء لهذا السبب أن يأخذ ببعض الحيطة إذا وقف قريبا من الشباك ، لكننا لا نفهم لم كانت الهيلة فى مخافة الشبابيك كبيرة إلى هذا الحد ولم كانت تلاحق ضحاياها ملاحقة تعدو ما تجيزه علتها الظاهرة بمدى بعيد . والذى نكتشفه عندئذ هو أن ذات التعليل يصدق على المخافة المرضية مثلما يصدق على حلم الهيلة : فالهيلة فى كلتا الحالتين إنما تلصق إلصاقا بالفكرة التى تصحبها ، وأما منبعها فشئ آخر .

هذه العلاقة الوثيقة بين الهيلة فى الحلم والهيلة فى العصاب [1] لا تترك لى مفرا من

قضية مهما بلغ وضوحها ، ما دامت لا تتلاءم ونزعاتهم العدوانية ؛ إذ يكفى القارئ أن يرجع صفحات قليلة إلى الوراء ليرى أننى ذكرت أحلاما تحقق عند الأطفال رغبات متنوعة (كنزهة بالبر أو ببحيرة ، أو كتعويض أكلة فاتت ، إلخ .) ، كما ذكرت فى موضع آخر أحلاما أثارها العطش أو الحاجة إلى التبول وأخرى لا تخرج عن أن تكون أحلام استسهال . بل إن رانك نفسه لا يرسل القول على إطلاقه ؛ فهو يقول : " هى أيضاً فى القاعدة رغبات جنسية " ، وهو قول يمكن تأييده تأييدا واسعا فى أحلام معظم الراشدين .

ولقد كان الموقف يختلف لو كان نقادى استخدموا لفظ " جنسية " بالمعنى الذى شاع استخدامه فيه اليوم فى التحليل النفسى — معنى " إيروس " [اسم يونانى لإله الحب كان من حظه أنه صار يستخدم منذ قديم كاسم كلى لجميع النوازع المتجهة — فى الطبيعة كما فى الإنسان — إلى التوحيد والخلق ، فى مقابل التفرقة والهدم أو السلب]. ولكن نقادى كانوا بعيدين غاية البعد عن أن يفكروا فى تلك المشكلة الهامة : هل الأحلام جميعها من خلق القوى الغريزية " الليبيدية " (فى مقابل " التدميرية ") ؟

(١) [الهيلة Angst لغة هى المخافة من الأمر لا يدرى المرء ماذا يهجم عليه منه . ويراد بها فى التحليل النفسى الخوف الذى يكون من ممكن مستقبل فحسب (كهبوب العاصفة أو الرسوب فى الامتحان أو — أخيرا — الموت) وليس من موضوع بعينه (كالرمضاء أو النار) . ولكن كلمة " Angst " يكثر أيضاً استخدامها فى اللغة الألمانية للدلالة على الخوف مجرداً وبأى درجة من درجاته ، وقد يجريها فرويد بهذا المعنى . ويقال أيضاً فى العربية " الهول " ولكننا لم نكد نستخدمه قط لشيوع معناه فى غير ذلك — هذا وقد احتفظنا بكلمة " القلق " لترجمة معنى "Sorge" أو "Worry" .]

الإشارة إلى الثانية عند مناقشة الأولى . لقد قلت منذ زمن ما فى مقال قصير عن عصاب الهيلة (فرويد ، ١٨٩٥ ب) : إن الهيلة العصابية تنشأ عن الحياة الجنسية ، وأنها توافق ليبيدو صرفت عن غايتها ولم تجد شاغلا يشغلها . ومنذ ذلك الوقت لم تجد هذه القضية إلا ما يزيدها ثبوتا . وهى تمكننا الآن من أن نستخلص منها أن أحلام الهيلة أحلام ذات محتوى جنسى ، تحولت الليبيدو المتصلة بها إلى هيلة . وسوف يتسع المقام فيما بعد لتأييد هذه القضية بتحليل بعض أحلام المرضى العصابيين . كما سوف يتاح لى فى خلال محاولة قادمة من أجل الوصول إلى نظرية فى الحلم أن أتحدث عن شروط أحلام الهيلة وعن اتفاقها مع نظرية تحقيق الرغبة [ص٥٦٧ وما بعدها .]